" جماليات الخطاب في دائرة التأصيل المنهجي للنقد الثقافي: الغذّامي أنموذجًا "

"Discourse Aesthetics in the Light of Methodological Establishment of Cultural Criticism Al_Ghadhami as amodel"

إعداد الدكتورة

مــــنى بشـــــير الجــــــراح

Mona Basheer Aljarrah

دكتوراه في فلسفة الأدب والنقد

أستاذ مساعد / قسم اللغة العربية في جامعة الملك خالد

أبها_ كلية العلوم والآداب بسراة عبيدة المملكة العربية السعودية

"جماليات الخطاب في دائرة التأصيل المنهجي للنقد الثقافي: الغذَّامي أنموذجًا"

منى بشير الجراح
قسم اللغة العربية ، كلية العلوم والآداب ، جامعة الملك خالد ، أبها، بسراة عبيدة ، المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: **Mona14@yahoo.com**

الملخص :

يأتي الهدف من هذا البحث برصد مسافات التقارب والتباعد بين النقد الثقافي والأدبي وملاحظة ما بينهما من تداخلات، ودورها في تشكيل دلالات النص في محاولة من الباحثة توضيح العديد من الإشكالات المبهمة التي تحيط بهذين البعدين حال إقصاء الجمالي/البلاغي عن النص. وسيكون ذلك في إطار من المساءلة الموضوعية للعديد من الإشكالات المنهجية التي وردت لدى الغذّامي أثناء بحثه نظرية النسق.

ومن ثمَّ بيان جدوى كشف النسق المضمر وإلى أي مدى يستأثر الشاعر بقراءته الثقافية حدّ عدم الانحراف إلى فقدان هويّة النص قيمته الأدبية أو الجمالية. فجلّ الفنون والآداب تفقد العديد من القيم الجمالية إذا ما خضعت للتأمل من وجهة نقدٍ ثقافيّ، وفي ذلك ما يتناقض ومنظور الحمولات الفلسفية المتأصّلة بتضافر كلا البعديْن في العمل الأدبيّ الرفيع: الجمالي، والثقافي.

ومن هنا تتضاعف القيم الجمالية أو تتهاوى بما يتوافق والنسق الذي تُدرس من خلاله، وسيكون ذلك في إطار استثثار الثقافي كافة الأبعاد الفلسفية المضمرة التي يشكّل فيها الجمالي محوراً مركزياً على المستوى النقيض من كشف الدلالة حول كل ما هو مضمر .

الكلمات المفتاحيّة: الثقافة الشعبيّة، التاريخانيّة الجديدة، التفكيكيَّة، ما بعد الحداثة، المجتمع الاستهلاكي.

"Discourse Aesthetics in the Light of Methodological Establishment of Cultural Criticism Al_Ghadhami as amodel"

Mona Basheer Aljarrah

Department of Arabic Language ، College of Science and Arts ، King Khalid University ، Abha، Sarat Abidah ، Kingdom of Saudi Arabia

E-mail: Mona14@yahoo.com

Abstract :

This research attempts to trace the differences and similarities between the cultural criticism and the literary criticism in dealing with literary and artistic work, and revealing their dimensions in case of dealing with these work away from the rhetoric and aesthetic sides.

It aims also at demonstrating the importance of revealing the concealed format, and to which extent the poet is affected by his cultural readings, since most of the literary and artistic works loose their aesthetic values if they are subjected to philosophical and cultural criticism.

Therefore, the aesthetic values increase are go less according to the format which they are subjected to,

Thus, this study focuses on how the cultural reading pays more attention to the concealed philosophical and cultural dimensions in the works where the aesthetic values are more obvious and clear.

Keywords: Popular culture, New historicism, Deconstructionism, Post modernism, Consumer society.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تأتي أهميّة هذا البحث في سياق الكشف عن الأبعاد الفلسفيّة والفكريّة التي تبنّاها عبد الله الغذّامي في بحثه للأنساق الثقافيّة التي احتزلتها الذاكرة الإبداعيّة العربيّة لعدة قرون، التي يشكّل فيها المنطوق البلاغي جزءًا لا يستهان به تتحدّد معه خصوصيّة الهويّة بكل ما تحويه من رؤى حضاريّة، وثقافيّة سعى الغذّامي في قراءاته الثقافيّة إلى تهميشها ومحاولة إلغائها.

وكان الدّافع لهذا البحث هو ملاحظة الباحثة انسياق العديد من الباحثين لطروحات النقد الثقافي التي تهمّ بإلغاء البلاغي، وإطلاق أحكام ينقصها الدقّة والشموليّة في الكثير من الأحكام، بل والحكم أحيانًا بانعدام جدواه، والنقد الثقافي من المجمل الحضاري لا يعدو أن يكون أكثر من إضاءات على النصوص، أو ممارسات قرائية تحوم حولها، وتتمحور في نشاط فكري يسعى إلى تهميش جماليات الخطاب البلاغيَّة من خلال هدم الأعمال الإبداعيّة الكبرى.

وفي هذا الإطار تنحصر إشكاليّة ذاك الانسياق عبر تساؤلات عدّة، تتمحور في غالبيّتها حول جدوى النقد الثقافي وممارساته الإجرائية التي يتغافل فيها الناقد قصْدًا

أو دون قصْد عن الأثر الجمالي للنصوص، بل ويتجاوز الأمر إلى إخضاع بعضها قسْرًا لخدمة تلك الرؤى.

فهل استنفد الناقد العربيّ آلياته النقديّة حتى يتحوّل إلى ما هو مخبوء حسب نظريّة النسق، فضلا عن المبالغات التي تنبع من تناقضات عدّة وقع فيها الغذّامي وغيره خلال التعامل مع النصوص لخدمة الرؤى الثقافيّة، وتوظيفاتها الحضاريّة التي يجب أن تشمل الشعري وغير الشعري في استنطاق المضمر الثقافي.

من هنا يتحدّد هدف البحث الذي يسعى إلى مقاربة المفاهيم الإجرائيّة في قراءة الغذّامي للنسق المضمر، التي ستؤول حتمًا في وقتٍ ما إلى نقطة التلاشي، والامّحاء إذا ما أُعيد قراءتها وفق رؤى منطقيّة يتحقق معها الشرْط الموضوعي للنقد في استكمال مشروعه الثقافي، ومن ثم الخروج بالنتيجة التي ستكشف عنها الدراسة.

وسترتكز جهود الباحثة على دعاوى تأويل الغذّامي لاستفحال الأنا لدى أدونيس في مرحلة الحداثة التي وسمها في كتابه برجعيّة الحداثة، وسيكون البحث في محورين أساسيين للخلوص بنتائج واضحة حول ما تقدم.

الأوّل: بحث الأبعاد الفلسفيّة في تكوين الرؤى الثقافيّة حول نسق الأنا الطاغية.

الثاني: بحث الإشكاليات الموضوعيّة في نظريّة النسق والاستدلال على ذلك بنموذج من عيّنة الدراسة.

وقد اعتمدت الباحثة في ذلك منهجيّة الوصف التحليلي لاستيفاء عناصر البحث، والإجابة على الإشكاليات التي سبق عرضها.

تعقبها بخاتمة تتضمن أبرز نتائج البحث، وقائمة بأسماء المصادر والمراجع التي أفادت منها الباحثة في استكمال عناصر البحث.

المحور الأوّل

بحث الأبعاد الفلسفيّة في تكوين رؤية الغذّامي حول نسق الأنا الطاغية

يرتبط النقد الثقافي بالفلسفة عمومًا أكثر من ارتباطه بالأدب، وتتقاطع بهذا المصطلح العديد من المفاهيم الفلسفية القائمة على خلخلة الثوابت، ووضْعها في إطار من المساءلات المستمرة التي ارتبطت بها حركات الحداثة، وما بعدها لدى الغرب.

كما يقع النقد الثقافي ضمن المعطيات الأولى لنظريّات التلقّي فيما يتعلق بأفق القارئ القائم على تقويض مركزيّة الثابت، واستبداله بكل ما هو ممكن ضمنًا لا يمكن حسمه فيما يدعم الخطاب النقدي الذي تنعقد أركانه حول الجمالي/ البلاغي.

وقد لاحظت الباحثة هيمنة عناصر القوى ذات التوجّه الثقافي نحو الجمهور لا بالمعنى النخبوي وإنّما العام ما أدَّى إلى تراكم العديد من البنى الفكريَّة الاعتباطيَّة غير المدروسة، وانحسار اللّغة في تمثّلات ذهنيَّة مؤطَّرة بالطبيعي والمعجمي في طريقها نحو التدرّج إلى نبذ الاختلافات والوصول إلى كافة الشرائح المجتمعيَّة.

ولا يمكن بحال استيفاء نظريّة النقد الثقافي بعيدًا عمّا هو أدبي الذي تخضع فيه النصوص إلى الأعراف البلاغية الكبرى، وهنا منشأ التعارض، أو الانقلاب على

كل ما من شأنه إقصاء البعد الآخر، وإحالة كل ما هو شعبي إلى الهامش بهدف تدعيم الجمالي الذي يُحسب له الرقي في العرف المؤسساتي الأدبي النخبوي.

وأسهمت الأبعاد الفلسفيّة (الأدبيَة) المطروقة فيما بعد البنيوية بشقّيها سواء ما يدعم مثول الأنا في استحضار الطاغية، أو تلك التي تسعى إلى هدم مركزيّة الأنا التي تختزل معها العديد من الصلات في كشْف تحيزات الخطاب من خلال القراءات المعنيّة بكشف الأنساق المضمرة في الدراسات الثقافية، وما بعد الاستعماريّة، التي أفضت بدورها إلى سهولة استخلاص المضمر القبحي.

أوّلا: فلسفة المرآة(١)

من أبرز النظريّات الفلسفيّة التي تتعارض في طروحاتها مع جوهر النقد الثقافي نظريّة المرآة التي أسهمت إلى حدّ بعيد في تشكيل الرؤى النقدية (الأدبيّة) ورصْد النظرة المعادية لها من قِبَل النقّاد طيلة القرن الآفل، واستيفاء الركن الثقافي المضمر في أكثر النصوص إيغالا في التحيّز، ومبالغات تضخيم الأنا إزاء الآخر لدى الشعراء، والتستّر بالجمالي على حساب المضمر الذي تسعى الأنا إلى تهميشه، ودون فصل البلاغي عن المضمر الثقافي على النحو الحادّ الذي تلقّاه الغذّامي، ووظّفه عبر مفاهيم إجرائيّة تنطوي على العديد من التناقضات في داخلها.

---

(١) انظر في مرحلة المرآة لـ: جان جاك لاكان في: ميجان الرويلي؛ وسعد البازغي، **دليل الناقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥، ط٤، ص ٢٣٠ -٢٣٣. ويجدر التنويه إلى أن تلك المساهمة الفلسفية لدراسة (مرحلة المرآة) لم تكن سبْقاً، أو حِكراً على **لاكان** إذ يشير الدَّارس إلى تأثر لاكان في نظريته تلك (بفرويد) بشكلٍ واضح، ويشير كذلك لتأثُّره (بهيجل)، وخاصة في كتابه "ظاهريَّات الروح"، وعلى الأخص الجزء الأول منه عن الوعي بالذات الذي انبنى وفق منظورٍ فلسفيٍّ خالص. انظر: محمود رجب، **المرآة والفلسفة**، إصدار كلية الآداب جامعة الكويت، ١٩٨١، ص١٩.

تكشف فلسفة المرآة العديد من التوظيفات الأيديولوجية لمفهوم الأنا وموقعها من الآخر، فضلا عن تحيّزات الخطاب، وموقعه من الوعي الذاتي بقيمة الأنا التي يمكننا من خلالها تفسير ذاك الانفصام الداخلي إزاء كل ما يحوطها.

إنّه المشهد الاستعماري الذي تسعى نظريّات ما بعد الحداثة إلى تحطيمه، ومحاولة تفتيته الذي عبّر الغذّامي عن توغّله في نموذج الأنا المطلق لدى أدونيس، وعدّه كذلك معامل التوارث الطبقيّ الأوّل، المسؤول عن النسق الفحولي[١] الخالص لديه، ولدى أغلب شعراء العربيّة.

هذا المناخ الذي يُعمّق الفجوة بين هويّة الأنا، ولا يتحدّد وجوده إلا من خلال الآخر الهامشي هو ما يعرف في اتجاهات الحداثة، وما بعدها بمفهوم التحديق[٢]، الذي تسعى جلّ القراءات الثقافية إلى تجاوزه، لئلا يتحوّل إلى اختراق مادّي نرجسي تتماهى معه الذات لتؤول إلى ذات سلبيّة معادية للآخر، وتتعارض مع كل ما هو أخلاقي في أعراف النقد الثقافي.

---

(١) للإفادة حول هذا النسق انظر: عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافيّة العربية)**، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) انظر في مفهوم التحديق: **دليل الناقد الأدبي**، ص ٩٤-٩٨.

في حين كانت إفادة أدونيس _كنموذج على استفحال الأنا_ في فلسفة المرايا تتجاوز حدود الأعراف الثقافيّة إلى كل ما هو بلاغي/ جمالي حيث جاءت لديه إحدى التقنيات الدّاعمة في شعريّته لإحلال كل ما من شأنه أن يُحدث نوعًا من المفارقات الحادّة بين الذات، والآخر، التي عبّر عنها كمال أبو ديب في إحدى كتاباته بـ: " مسافة التوتُّر" (١)

وهو تأثّر فلسفي واضح بطروحات مرحلة المرآة التي شكّلت في شعر أدونيس مساحات واسعة من التحديث التقني في بعدَي: الشكل، والمضمون على سبيل الدّمج، والإضمار في العلاقة الجدليّة بين الذات والآخر.

كما حقّقت لديه الكثير من عوامل الاستبطان الوجودي في النزوع إلى الكشْف عن كل ما هو لا مرئي/ مضمر في العرف البلاغي الأدبي، وليس الثقافي، لذلك جاءت مراياه على نحو من التوهيم المعنيّ بالخلفيّات الأيديولوجيّة عقائديّة كانت أم سياسيّة. وهذا ما يتعارض بشدّة مع طروحات النقد الثقافي الساعية إلى هدم نسق الطّاغية.

---

(١) انظر: كمال أبو ديب، **في الشعرية**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م ص٣٧.

ثانيًا: فلسفات فكر الاختلاف

اطّلع الغذّامي على فلسفات فكر الاختلاف وأفاد منها، سيَّما التفكيكيّة القائمة على تدمير مفهوم العلامة، ومنطقها، وهو بالمعنى الذي ذهب إليه دريدا تدمير لكل تجوهر قارّ، ولجوء إلى الواحد المتعدّد بتجريد العلاقة بين الدالّ والمدلول، وخروجًا عن الرؤية المركزيّة في علاقة الدوالّ وصولاً بالرؤية التواشجيّة التي تتجاوز حدود العالم الفاصلة، وتؤمن بالتعدديّة، والتجاور.

فكما أنّ التجاور يأتي لدى كمال أبو ديب بديلاً لمفهوم الوحدة، والحديث عن فكر الاختلاف بديلًا عن الأجناس الأدبيّة، فإنّ النقد الثقافي عليه أن يحلّ بديلاً عن البلاغي/ الجمالي في الأعراف الأدبيّة.

هذا المنحى من التفكير يفسّره تيري إنجلتون بأنّه:" أدب يتحرَّك في لهو عدميّ، أو في تجاوز خفيّ نحو نقطة التلاشي، يُفضّل التفتّت على التماسك في محاولة منه لبناء أدب قائم على مفاهيم العداء للاستمراريّة، والعداء للرابطة الداخليَّة القائمة

أساسًا على فكرة التشابه، والتكرار للظاهرة، وبالتالي فهو يهدف إلى إنكار نماذج ذات معنى داخل النص...إلخ"(١)

وتجدر الإشارة إلى أنّ تشريحيَّة الغذّامي _كما أطلق عليها_ لا تترادف مع تفكيكيَّة دريدا؛ فالتشريحيَّة عند الغذَّامي تسعى إلى الهدم لإعادة البناء وفق نسقٍ حضاريّ حديث، بينما تفكيكيَّة دريدا لا تنطوي على إمكانيَّة إعادة البناء، فإعادة البناء عنده فكرة ميتافيزيقيَّة لا يسعى إلى تحقيقها.

وهذا جوهر إشكاليَّة البحث الذي لابدَّ من تسليط الضوء عليه، حيث تعاني الترجمة العربيَّة للمصطلحات الغربيَّة من النظر إلى المفاهيم الغربيَّة بوصفها مصطلحات كونيَّة عالميَّة، متجاهلين تحيّزاتها الحضاريَّة، فالأزمة ليست أزمة مصطلح وترجمته إلى العربيَّة، وإنَّما هي أزمة ثقافيَّة متعلّقة بالثّقافة التي أفرزت المصطلح، واختلاف الثقافة الحاضنة له.

إنّ تأثّر الغذّامي بالطروحات الفلسفيّة السابقة لا يأتي في سياق رفض العلاقات الاصطلاحية بين الدوالّ وهدمها كما لدى التفكيكيين، وإنّما محاولةً لرفض

---

(١) تيري إنجلتون، **نظريّة الأدب**، ترجمة: ثائر أديب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م، ص ٢٤٩.

النمطيّة والصيغ الموروثة الجاهزة في آليات القراءة، واستخراج الأنساق الثقافيّة المهيمنة، أو المهمّشة، ووضعها في سياقها المرجعي الصحيح، ولا يخفى على أحدنا ما في ذلك من إلغاءٍ لخصوصيّة الشعوب تحت غطاء العولمة، والتي يمكن لأي ناقد حصرها، وتحصيلها لا من خلال الفصْل الحادّ بين ما هو ثقافي، وأدبي، وإنّما في دائرة من التكامل لتعقّب الشرط الحضاري.

وبذلك يتماسّ النقد الثقافي بالعديد من الممارسات التفكيكيّة التي اتّبعها دريدا خاصّة بفكرة الأثر[1] ، الذي يمكن أن نعدّه النقطة الأولى التي تتلاقى حولها جميع الأشياء المعرفيّة الجاهزة، وانقلاب معرفيّ من الناحية الفكريّة للعناصر المتجاورة بالتباين، وذلك بالنأي عن أي نقطة تمركز لكل ما هو هامشي، وخارجي، ومشتق، ومحاولة لكسر المتضادّات لكل ما من شأنه منح الامتياز، ثم بناء الفكر بالاختلاف، وبالتالي لا وجود لأي أصل إلا بالانقلاب لطالما أنه يتم التعامل معها من منظور المعارف المركّبة، وبما أن الموضوع في حقول فكر الاختلاف تحوُّل من مستوى الكائن أو المعطى الخارجي إلى حزمة من الأفكار المنتجة في صورة دليل لغوي فإنّ مجموع ما قيل فيه ليس حاضرًا فيه، وبالتالي هو أثر.

---

(١) انظر المصطلح: **دليل الناقد الأدبي**، ص ١١٢-١١٥.

فالدالّ اللغوي في تجاوز المنطق البنيوي إلى ما بعد البنيوي لم يعد مرتبطًا بمدلوله ذلك الارتباط العضوي التجسيدي الذي يمكن استكناهه في الواقع الحسّي المباشر، ولم يعد كذلك دالّا يتعلق بسلسلة من الدلالات اللغويّة الحاضرة فيه، بل الغائبة عنه.

ويتماسّ النقد الثقافي كذلك بمصطلح الاختلاف(1) بمفهومه الألسني الأدبي في النقطة التي تبدأ فيها خلخلة ميتافيزيقيا الحضور، وانقلابها إلى الهدم لجميع المفاهيم التي اكتسبت مدّة طويلة من الهيمنة، والفوقيّة بعيدًا عن التحرّك الأفقي لإدراك التشاكل بين النصوص، وبعيدًا أيضًا عن المحور (النسق)، وبالتالي فإنّ كل معرفة تنتج موضوعها ضمن الدلالات الكائنة في نص ما فيما هو غائب عنه لا فيما هو حاضر فيه، وبذلك تكون المسافة بين ما تعيه المعرفة في الموضوع، وبين ما هو مكوّن فيه أصلا بالضبط في إطار ما يسمى بالاختلاف.

ويتماس الثقافي كذلك بالتكراريّة(2) التي تعدّ بمثابة القوى الخفيّة في النص التي تتلاقى بالخطّ الأوّل (الأثر) في التماس كل ما هو تكرار، واقتباس من سياق تاريخي

---

(1) انظر المصطلح: **المرجع نفسه**، ص ١١٥-١١٩.
(2) انظر المصطلح: **دليل الناقد الأدبي**، ص ١٢٠-١٢٣.

إلى سياق جديد، فلا يتكرّر إلا المختلف، وليس المقصود هنا مضاعفة الدلالات، وإنّما في كل مرّة دالّ يتعرّض لعدد لا متناهٍ من الولادات نكون إزاء مفهوم متكرر لما هو مختلف.

ولا يجب أن يُفهم من النص كذلك أنّه يمكن أن يكون "صدى لنصوص أُخر"(١)، وهذا الخطأ الذي وقع فيه الغذّامي في مقارباته التفكيكيّة.

وممّا يؤكد تأثُّر الغذّامي السابق في ارتباط مفاهيم النقد الثقافي بالفلسفة التفكيكيّة في نظريات بعد الحداثة، هو ذكره لأهم الخلفيات المعرفية التي كانت وراء ظهور النقد الثقافي، مع التركيز على (فانسان ليتش) (٢) باعتباره رائد النقد الثقافي في الحقل النقدي الأمريكي. وبعد ذلك توضيح منهجيته الحفريّة في تعرية الخطابات بُغية تحصيل الأنساق الثقافيّة التي حصرها في مجموعة من المفاهيم، كالجملة الثقافية، والمجاز الثقافي، والتورية الثقافية، والدلالة الثقافية، والوظيفة النسقية، والنسق المضمر، والمؤلف

---

(١) للإفادة حول ذلك انظر: عبد الله الغذامي، **الخطيئة، والتكفير من البنيويّة إلى التشريحيّة (قراءة نقديّة لنموذج إنساني معاصر)**، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ١٩٨٥م، ص ٦٢.

(٢) انظر: عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافيّة العربية)**، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣١-٣٥.

المزدوج، متأثّرًا في ذلك بجاك دريدا، وبارت، وفوكو، وهذا ما يفسر تمثُّل الغذّامي للبعد الفلسفي السابق على غرار التصوّر التفكيكي لدى جاك دريدا.

وعليه؛ فاللّغة من هذه الوجهة حرّة الارتباط بغيرها من الوظائف وهذا عائد إلى مرونتها فالعديد من اللّسانيين يرون أنَّ اللّغات أنظمة من الرموز صيغت لغرضٍ تواصليّ. شريطة أن تبتعد عن المرونة التي تنقلها إلى مرتبة الفوضى والعشوائيَّة.

نستخلص ممّا تقدّم أن فلسفة النقد الثقافي في تعرية الخطاب المؤسساتي، وكشف أساليبها في ترسيخ هيمنتها على الذّائقة الحضاريّة، تتلاقى بالعديد من عناصر التقويضيّة التي اتّبعها دريدا في مهاجمة الفكر الغربي الماورائي، والإحاطة بها.

المحور الثاني

بحث الإشكاليّات الموضوعيّة لدى الغذّامي في نظريّة النسق والاستدلال على ذلك بنموذج من عيّنة الدراسة

بنظرة فاحصة لما ورد لدى الغذّامي من طروحات في كتابه المعنون بالنقد الثقافي يلمس القارئ إسهابه في التنظير، وتبنّيه قراءة الأنساق الثقافية المضمرة حتى إذا ما وصل إلى الحدود الإجرائية دخل في إطار من الوصف السردي للأعمال الأدبيّة الكبرى التي تأسّست في وعْي المتلقي، والتي بدت لنا في حصْره لها بتلك القيم لاعتبارات ثقافيّة وكأنها الثقافة الخام التي تنعقد بها ثقافة العربيّ بعيدًا عن المضامين الإبداعيّة الأخر بين ما هو شعري وغير شعري بسبب التداخل المصطلحي غير المحسوم لديه بين الثقافي، والحضاري، ممّا أوقع الغذّامي في خانة التحيّز، والمبالغة إلى العديد من الأحيان ستجملها الباحثة بالآتي:

أوّلا: حصْر الغذّامي للقيم الإنسانية المتحضّرة بالأخلاقي بتغافل تام عن الجمالي الذي يدخله في دائرة المساءلة، ولا يمكننا بحال أن نعزل القيم الجمالية عن القيميّة كمطلب إنساني، وروحي لقياس درجة التحضّر، وعليه؛ فإن مشروعيّة النقد الثقافي لدوافع تعرية الخطاب المؤسساتي لن تكون إلا بالسّلب، والإزالة، وإحلال

للوحدة المنعقدة من كينونة الجمالي إلى ما هو ثقافي، وفي هذا الإجراء التقويضي للمفاهيم ما يؤول إلى تحجيم هويّة اللغة ومعول لهدم التراث الإنساني وهو بالتالي أشدّ خطرأ من الدوافع التي يسوقها منظّروا النقد الثقافي في إعادة مساءلة الخطاب.

كما أن ربط الخطاب الشعري بقيمة ما يعود بنا إلى النظريّات النقديّة القديمة التي لا ترى من الأدب أكثر من انعكاس للمجتمعات، ومحاولة إصلاحها وعليه؛ فإنّ ما يقدّمه النقد المنهجي المرتبط بفلسفات التجاور _ مثلا_ في انعقاد الرؤية عبر متناقضين سيكون أكثر جدوى، واستمراريّة من الأدب أحادي الرؤى، فمن أين للمنطوق البلاغي كل هذه السطوة على إخفاء القبحيّات ما لم نعترف بقيمه الجماليّة أوّلا؟

ومن هذه الوِجهة لن تُبارِح الباحثة في تأكيدها على انعدام ديمومة الدراسات الثقافيّة، لأنّ عنصر الجمال في الأدب والفن قيمة عُليا في حدّ ذاته، وما تصبو إليه رؤى النقّاد في أقل تقدير ما إن تتربّص به عين الثقافة حتى تُحيله إلى أرضٍ مطبقةٍ بالصّمت.

فالدّلالات النوعيَّة في هذا الإطار متشعّبة، والقيم الجماليَّة متعدّدة في استنطاق أبعاد الخطاب بشقّيه: اللّساني، والثقافي.

ثانيًا: انسياق الغذّامي إلى العديد من الرؤى المرجعيّة التي وردت في طروحات علي الوردي وسخريته من الشعر العربي القديم حيث يقول الغذامي:" مازلنا ندرس طلابنا في المدارس والجامعات مادة البلاغة بعلومها الثلاثة، ولا نعي أن ما ندرسه لهم هو علم لم يعد يصلح لشيء، فلا هو أداة نقدية صالحة للتوظيف، ولا هو أساس لمعرفة ذوقية أو تبصر جمالي، وإن كانت قديما كذلك إلا أنها لم تعد أساسا لتصور ولا لتذوق. ومن ذا يحتاج إلى رصد الكنايات والجناسات والطبقات في أي نص، ومن ذا يحتاج إليها لتذوق أي نص أو تعرف صيغه ودلالاته، ونحن في الجامعات ندرس طلابنا وطالباتنا كل ما هو نقيض لهذه البلاغة ومتجاوز لها، ولكننا لا نجرؤ على إلغاء مقررات البلاغة، وقد نظن أن إلغاءها سيكون بمثابة الانتحار المعرفي، أو التآمر ضد التراث، وضد ذائقة الأمة"(١)

وفي ذلك ما يتوافق مع أغلب الآراء التي نادى بها الوردي في كتابه وإن لم تأت في سياق النقد الثقافي، وإنما بما يخدم نظريات علم الاجتماع مقارنةً بما تقدّمه الدراسات العلميّة من خدمة ونفع للبشريّة " ... ونحن نسيء إلى طلاب الأدب كل

---

(١) عبدالله الغذّامي؛ وعبد النبي اصطيف: **نقد ثقافي أم نقد أدبي**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ٢٠٠٤م، ص١٢.

الإساءة حين نملأ أدمغتهم بالقواعد العويصة، ونفرض عليهم التزامها فيما يكتبون ... يعتقد الدكتور محيي الدين أن علوم البيان، والمعاني، والبلاغة ضروريّة لطلاب الأدب وأنا أعتقد بأن العلوم الاجتماعيّة، والنفسيّة أجدى لهم من هاتيك العلوم العتيقة التي تقيّد العقول، وتسدّ عليها منافذ الإبداع" (١)

ولا تخفى مغالاة الغذّامي في مهاجمة التراث العربيّ إلى حدّ أفقده الموضوعيّة في العديد من نقوداته التي عمد فيها إلى حصْر تراث الأمة ببعض النماذج الشعرية التي لا تنسحب على المنجز الثقافي ككل، وكون الأدب جزءًا من كل ثقافي فيجب أن ينسحب العام على الخاص، وليس العكس.

ثالثًا: خلْط الغذّامي في المفهوم الإجرائي بين المنجز الثقافي، والحضاري، وهو ما تتحدّد به دوافع اختياره عيّنة الدراسة في اقتصاره على الخطاب الشعري، فإذا كان يعني بهما كرديفيْن في حقول الأدب فثمة خطابات فنيّة أخرى لم تشملها الدّراسة أحالتها التقنيات الحديثة إلى تجسيد درامي كالإعلانات، والسّيَر الشعبيَّة، والرّحلات، والمسرح، والسينما ووو... إلخ، وإذا كان يعني بالثّقافي كل ما هو أدبي وغير الأدبي

---

(١) علي الوردي، **أسطورة الأدب الرفيع**، لندن، دار كوفان، ط٢، ١٩٩٤م، ص٦٦-٦٧.

فلماذا اعتمد في نماذجه على الخطاب الشعري دون السياسي أو الاجتماعي أو الديني _مثلا_ ولماذا لم يشمل الأدبي لديه الخطاب الروائي، أو القصصي كذلك.

ربّما تكون عيّنة الدّراسة ذات الامتداد الطويل نسبيًّا في الكشف عن هيمنة الخطاب القبحي إلى حد تشكيل النسق عبر امتداد للمثولات السلبيّة في النصوص الشعريّة أكثر وضوحًا، إلا أنّني أميل في اعتقادي أنّ رصْد النّسق الثقافي للقبحيّات سبقت إليه الأوساط الدراميّة، وتجذّرت في بنية التشكيل المعرفي للمتلقي على نحو أكثر حضورًا لعوامل هيمنة النص، بالصّوت، والصورة، والتجسيد ضمن تمثُّلات ذهنيّة تعجّ بالحركة، والدّوران، والتداوُل، وبالتالي فإن سلطة النص على المستوى الدرامي تفوق سلطته على المستوى الشعري، ومعاينة القبحيّات تكون على شريحة أوسع، وأكثر انتشار.

نموذج عيّنة الدّراسة: نقد ضدّ اللغة / نقّاد فوق السلطة

يُقدّم الغذّامي في معارضته لنسق عودة الفحل غير نموذج يستدلّ من خلاله على رجعيّة الحداثة، وستُعنى الباحثة في هذا الصدد بالوقوف على المشروع الحداثي لدى أدونيس الذي نعته الغذّامي بالرّجعي، وعدّه ترسيخًا لنسق مهيمن متعالٍ في الثقافة العربيّة وامتدادًا لخطابات الهيمنة الأخرى المماثلة في عيوبها النسقيّة لمعظم

النصوص الشعريّة القديمة التي تركّز على موقع الذّات مقابل إنكار الآخر، ونفْيه كمدائح المتنبي، وحداثة أبي تمّام التي تحتل في ذاكرتنا مساحة واسعة لتجذّر نسقي مضمر لم يقع في دائرة المساءلات الثقافيّة.

يقول الغذّامي: " ... وظلّت هذه الأنا تمرّ دون نقد، أو مساءلة منذ عمرو بن كلثوم إلى جرير، وإلى المتنبّي وحتّى زمننا هذا لدى نزار قبّاني، وأدونيس، على الرّغم من إبداعيّة الجميع، وجماليّاتهم، وحداثيَّة بعضهم، غير أنّ النّسق أقوى وأرسخ؛ ولذا ظلَّ يتجلَّى في نسخ متعدّدة، ويؤسس لنشوء الطّاغية، ويزرع الأرضيّة الملائمة لهذا النشوء ...إلخ"[(١)].

وباستطلاع الرأي السّابق ثمّة فرق بين المشروع الحداثي الذي يقدّمه أدونيس، في مناقشاته لرجعيّة اللغة، والمشروع الثقافيّ الذي يتبنّاه الغذّامي في إطار رجعيّة الفكْر لذا؛ نجد أنّ للّغة في محاورات أدونيس النقديّة في الثابت والمتحوّل مثلا، أو في الشعريّة العربيّة، أو في زمن الشعر ... إلخ الأولويّة المطلقة في إطار الكل المرجعي/ الثقافي، في حين نجد الأولويّة في مشروع الغذّامي النقدي للمنجز الثقافي الذي يرى فيه أنَّ بلاغيَّة

(١) انظر: **النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافيّة العربية)**، ص ١٧٥.

اللّغة وهيمنتها على الخطاب الرسمي عائقٌ في سبيل تقدّم الفكر، والنهوض بالمجتمعات في سُبُلِ قيم التعايش الحرّ مع الآخر.

"... أحب أن اعترف بأنني كنت بين من أخذوا بثقافة الغرب. غير أنّني كنت كذلك، بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلّحوا بوعيٍ ،ومفهومات تمكّنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرةٍ جديدة ،وأن يحقّقوا استقلالهم الثقافيّ الذاتيّ ... .فقراءة (بودلير) هي التي غيّرت معرفتي (بأبي نواس)، وكشفت لي عن شعريّته، وحداثته. وقراءة (مالارميه) هي التي أوضحت لي أسرار اللغة العربيّة، وأبعادها الحديثة عند (أبي تمّام)، وقراءة(رامبو، ونرفال، وبرتيون) هي التي قادتني إلى اكتشاف التجربة الصوفية – بفرادتها وبهائها. وقراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلّتني على حداثة النّظر النقدي عند (الجرجاني)، خصوصاً في كل ما يتعلّق بالشعريّة، وخاصيّتها (اللغويّة – التعبيريّة)" (١).

وبمقارنة المقولات النقديّة السابقة بين أدونيس، والغذّامي نرى أنّ كلا منهما يحمل على عاتقه مهمّة ثقافيّة ما في إطارها المنهجي مع الاختلاف في النتائج، فشتّان

---

(١) أدونيس، **الشعرية العربية: محاضرات أُلقيت في الكوليج دو فرانس**، باريس، أيّار، ١٩٨٤، دار الآداب، بيروت، ط١، ص ٨٦-٨٧.

بين من يُعارض الخطاب الرسمي، وتفكيكه باستثمار طاقات اللغة، وبين من يعارضها بالانقلاب على اللغة.

"... هكذا يجد العرب أنفسهم بسببٍ من هيمنة هذه المعرفة " الأصوليّة" على مستوى المؤسَّسة والسلطة، وبالرّغم من جميع التحوّلات التي حدثت منذ أربعة عشر قرنًا، كأنّهم يتحرّكون على مسرح يُعيد فيه التاريخ نفسه ... وممّا زاد في هيمنة هذه الممارسة المعرفيّة أنّ الفكر العربي الحديث لم يواجهها مواجهة تحليلٍ، ونقدٍ، وتفكيك، ربّما لأنّه لم يجرؤ. أو ربّما آثر أن يُمارس "سحرا" ما "يطمسها أو يُلغيها" ... إلخ"(١).

بنظرة فاحصة إلى ما تقدَّم لا يمكننا مقارنة اللغة بما هو نقدٌ للّغة، ولابدّ من التفريق أوّلا بين من يسعى في مشروعه الحداثيّ إلى تطوير اللغة، ومن يسعى إلى تهميش اللغة بإدانة العامل المجازي، للخروج من مأزق التبعيّة.

والفعل التقويضي (في اللغة) أكثر تبصُّرًا من الفعل التقويضي (للُّغة)، لأنّ الأوّل يُسقط الاعتبارات البلاغيّة للّغة، بما يحفظ لها مقوّماتها الحضاريّة التي تميّزها عن اللغات الأخرى، وتحقّق لها خصوصيّتها البنائيّة؛ حيث تجاهل الغذَّامي خصوصيَّة اللغة

---

(١) **المرجع نفسه**، ص ٨٣-٨٤.

العربيَّة التي تنأى بها عن إمكانيَّة مقارنتها بأي لغة أخرى، وتجعلها تسمو على كونها مادَّة للأدب إلى درجة من القداسة اكتسبتها بالكتاب العربي المبين، وهذا ما يطرح فكرة التقويض جانبًا.

لذا؛ نلحظ افتقار الجزئيّة التي يتحدّث فيها الغذّامي عن أدونيس للكثير من الموضوعيَّة في إطلاق أحكامه بما يخدم نظريّة النّسق التأويلي لما هو رجعي ومن ذلك تأويله غير الموضوعي في تسمية أدونيس كتابه بزمن الشعر على أنه ليس بزمن العقل، أو الفكر، وأنّ الحداثة في نظره تقتصر على الشعر وحده لا بزمن العقل أو السياسة، التي شغلت فيها اللغة وليس الشعر وحده مساحات واسعة من كتابات أدونيس التنظيريّة.

يذهب أدونيس إلى أنّ "... الثورة اللغويّة تكمن في تهديم وظيفة اللغة القديمة: أي إفراغها من القصد العام الموروث، هكذا تصبح فعلاً لا (ماضي) له، تصبح كتلةً تشعُّ بعلاقاتٍ غير مألوفة ... الثورة التي نتطّلع إليها ... ليست شكليّة أو جماليّة ... وإنما هي تفجير للّغة من الدّاخل ... إلخ "[1].

(١) أدونيس، **زمن الشعر**، ، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م ص١٣١.

ولا أدري مالذي أوحى للغذّامي أنّ المقصد من تسمية الكتاب بزمن الشعر هو إلغاء الزمن السياسي، أو العقل السياسي؟ وما الذي دعا به إلى هذا القدر من التعميميّة في إطلاق الأحكام بُغية إخضاعها كأداة قياس صالحة للاستدلال على النسق الفحولي المعنيّ بالدّراسة.

تتهاوى المسافة الجماليَّة للّغة بردْم نقاط الاختلاف بين ما تُمليه لغة الخطاب ولغة الكتابة من استحقاق لا يأتي على نفس محور التأثير التواصلي في أثر اللَّذة الجماليَّة لدى المتلقي، إذ ثمّة فرق بين لغة الأدب، وأدبيَّة اللّغة؛ فلغة الأدب تقع في الإطار الكلي الأصيل للّغة من منظور أدبيّ، أمَّا عندما نتحدَّث عن أدبيَّة اللّغة ندخل حينئذ في استشراف عناصر أسلوبيَّة محدَّدة لا تقع في صميم اللّغة إلا بوصفها عنصرًا تكميليًّا جماليًّا لا يمكن أن ننفي محاولة المخاطِب في الاستعانة بتأثيرها الجاذب لرفْع مستوى الذّائقة اللّغوية لدى الجمهور.

"فاللّغة الأدبيَّة خاصَّة محمَّلة بقصديَّة دائمًا، والمقصود ليس أن نقول الأشياء فقط، ولكن لكي ننتج انطباعًا جماليًّا وشعريًّا جذَّابًا"[(١)].

---

(١) جيرو، بيير. **الأسلوبيَّة**، ترجمة: منذر عياشي، ط٢، حلب: مركز الإنماء الحضاري للدّراسة والترجمة والنشر، ١٩٩٤م، ص ١٤٦.

والاستهانة بجماليات اللغة لحساب كل ما هو ثقافي يؤدّي إلى تجاوز بعض المثقفين في إقصاء جماليات اللغة الفصحى ووسْمها بالقبحيَّات حينما تنعطف على ذوات مضخّمة، أسهمت في تعزيز الأنا المعادية للآخر، فأصبحت اللغة وسيط تعالٍ لا وسيط جمال تخضع بشكل أو بآخر لمساءلة شريحة مجتمعيَّة واسعة لا يمكن الاستهانة بها في محاولتها تقزيم الأدبيّة، ونبذها، والإمساك بروابط تفكيكها ومحاربتها بحجّة أنّها لغة متطرّفة تحمل في طيَّاتها تحريضًا على الفوقيَّة والامتياز، ويأتي هذا العامل كرد فعل على كل ما من شأنه تنحية الآخر، وضد كل ما هو فوقي بامتياز حتى لو كان في صميم اللغة ذاتها.

كما أنَّ انغلاق اللغة على جمالياتها يرى فيه البعض نوعًا من إقصاء الآخر، وفي بلاغيات الخطاب حيلة لإخفاء قبح ثقافي ما تسعى الدراسات الثقافيّة للقضاء على امتداداته الراسخة حتى لو كان ذلك على حساب هدم بلاغة الخطاب، وأحد أهم المكوّنات التي لا تكتمل أركان اللغة دونه.

وأخيرًا، إنَّ أيّ محاولةٍ لإضعاف أركان الّلغة في تحليل الممارسات المنهجيّة على الأنظمة الخطابيّة يتطلّب من الناقد الثقافي قدرًا من الموضوعيّة لعدم الوقوع في خانة التعميم، والتحيُّز، فثمة انسياق غير مبرّر لكل ما تعارف عليه _مسبقًا_ بالبلاغي،

وفي توريثه للأجيال القادمة بداية معقّدة تُفقدهم الحسّ اللّغوي بإحلال الخطاب الهامشي كبديل، وإلغاء البلاغي الذي هو جوهر لغتنا ، وكتابنا المقدّس المتعيَّن بالقرآن الكريم، كما أنّه تحويل غير مباشر لهويَّات مُغايرة تدعم الفكر الغربي وتُحيل اللّغة إلى بنية فكريّة مغلقة يكون فيها _الوضعي_ الثقافي البديل المعارِض للطاقات الإبداعيَّة الكامنة في اللّغ

الخاتمة

قامت فكرة هذا البحث على متابعة أبرز نقاط التلاقي، والتعارض بين النقد الثقافي، والأدبي من وِجهة فلسفيَّة يتعيَّن من خلالها جدوى الاهتمام بطروحات النقد الثقافي من عدمه، ومناقشة عدد من القضايا الفلسفيَّة التي تُحيل المنجز الأدبي في حقول ما بعد الحداثة إلى خطابات من الهيمنة تستتر بالبلاغي في ترسيخها لمثولات سلبيَّة مضمرة إلى حدّ تشكيل النسق.

وفي المحور الثاني ارتكزت جهود الباحثة على بحث الإشكاليّات التي تُحيط بمعطيات القراءة الثقافيّة حول نسق استفحال الأنا كنموذج لتستدلّ به على مقدار التحيّز، والتعميم، والمبالغة التي وقع فيها الغذّامي وحصْره العديد من النتائج في رؤى تهويميَّة تُصادر الإبداع وتقاومه على غِرار العديد من القراءات الثقافيّة التي تفتقر في حدودها الإجرائيّة أن تنقل النقد الثقافي إلى مصافّ المنهج الذي يكتسب شرعيّة تأويل الخطاب من خلال استراتيجيّات واضحة.

وعليه؛ فالنقد الثقافي لا يعدو أن يكون ممارسة قرائية، أو نشاطًا معرفيًّا وليس منهجًا خالصًا لرؤية مهيمنة ما من اتّجاه آخر لا يمتلك أدواته الإجرائيّة المنوطة باشتراطات القراءة المتكاملة على المستوى المنهجي.

وفي الختام حاولت الباحثة الالتفات إلى مدى جدوى انسياق الناقد العربي في دراسته للنصوص الأدبيّة من منظور نقدٍ ثقافيّ، وما إذا كانت تستحقّ تلك الجهود المبذولة في قراءتها من خلال طرحهم لسؤال القيمة، وترى أنَّ البديل المعارِض الأنجع للفكر العربيّ التقليدي في خطابات الهيمنة لا يكون إلا باستثمار طاقات اللغة، وليس بتقويض دعائم اللغة؛ ليصبح الخطاب في ظلّ هذه المعطيات ظاهرة تعبيريّة تستند في عمليّات الاختزال المعرفيّة إلى الوجود الطبيعي العقلاني في استعادة مقاصده الأبديَّة.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو ديب، كمال. **في الشعريَّة**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- أدونيس. **الشعرية العربية: محاضرات أُلقيت في الكوليج دو فرانس**، باريس، أيّار، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- أدونيس. **زمن الشعر**، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.
- اصطيف، عبد النبي؛ وعبدالله الغذّامي. **نقد ثقافي أم نقد أدبي**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ٢٠٠٤م.
- إنجلتون، تيري. **نظريّة الأدب**، ترجمة: ثائر أديب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م.
- جيرو، بيير. **الأسلوبيَّة**، ترجمة: منذر عياشي، ط٢، حلب: مركز الإنماء الحضاري للدّراسة والترجمة والنشر، ١٩٩٤م.
- رجب، محمود. **المرآة والفلسفة**، إصدار كلية الآداب جامعة الكويت، ١٩٨١.
- الرويلي، ميجان ؛ وسعد البازغي. **دليل الناقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٤، ٢٠٠٥م.
- الغذامي، عبد الله. **الخطيئة، والتكفير من البنيويّة إلى التشريحيّة (قراءة نقديّة لنموذج إنساني معاصر)**، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ١٩٨٥م.
- ـــــــــــ. **النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافيّة العربية)**، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ٢٠٠٢م.
- الوردي، علي. **أسطورة الأدب الرفيع**، لندن، دار كوفان، ط٢، ١٩٩٤م.

References

- 'abu dib, kamali. fi alsheryat, muasasat al'abhath alearabiati, bayrut, ta1, 1987m.
- adunis. alshieriat alearabiatu: muhadarat 'ulqyt fi alkulij du fransi, baris, ayar, dar aladab, bayrut, ta1, 1984m.
- 'adunis. zaman alshaera, dar aleawdati, bayrut, ta2, 1978m.
- astifi, eabd alnabi; waeabdallah alghdhdhamy. naqd thaqafiun 'am naqd 'adbi, dar alfikri, dimashqa, suria, 2004m.
- 'iinjiltun, tiri. nzryt al'adbi, tarjamatu: thayir 'adib, wizarat althaqafati, dimashqa, 1995m.
- jiru, byir. alaslwbyat, tarjamatu: mundhir eayashi, ta2, halb: markaz al'iinma' alhadarii llddrast waltarjamat walnashri, 1994m.
- rajaba, mahmud. almurat walfalsafatu, 'iisdar kuliyat aladab jamieat alkuayti, 1981.
- alrwili, mijan ; wasaed albazghi. dalil alnaaqid al'adbi, almarkaz althaqafii alearabii, aldaar albayda'i, almaghribi, ta4, 2005m.
- alighdhami, eabd allah. alkhatiyati, waltakfir min albnywyt 'iilaa altshryhy (qira'at nqdyt linamudhaj

'iinsaniin mueasiri), alnaadi al'adabii althaqafii, jddt, 1985m.

- . alnaqd althaqafiu (qira'at fi al'ansaq althqafyt alearabiati), almarkaz althaqafii alerby, bayrut, 2002m.
- alurdi, ealay. 'usturat al'adab alrafiei, landan, dar kufan, ta2, 1994m.